357 - ـ فصل : متى جرى ما لا نعرف حكمته فأنسبه إلى قصور علمك .

هذا فصل ملاحظته من أهم الأشياء .

ينبغي لمن آمن باﷲ تعالى أن يسلم له في أفعاله و يعلم أنه حكيم و مالك و أنه لا يعبث .

فإن خفيت عليه حكمة فعله نسب الجهل إلى نفسه و سلم للحكيم المالك فإذا طالبه العقل بحكمة الفعل قال : ما بانت لي فيجيب علي تسليم الأمر لمالكه .

و إن أقواما نظروا بمجرد العقل إلى كثير من أفعال الحق سبحانه فرأوها لو صدرت من مخلوق نسب فيها إلى ضد الحكمة فنسبوا الخالق إلى ذلك .

و هذا الكفر المحض و الجنون البارد .

و الواجب نسبة الجهل إلى النفوس لإغن العقول قاصرة مطالعة حكمته .

و أول من فعل ذلك إبليس فإنه قد رآه قد فضل طينا على نار و العقل يرى النار أفضل فعاب حكمته .

و عمت هذه المحنة خلقا ممن ينسب إلى العلم و كثير من العوام .

فكم قد رأينا عالما يعترض و عاميا يرد فيكفر و هذه محنة قد شملت أكثر الخلق .

يرون عالما يضيق عليه و فاسقا وسع عليه فيقولون هذا لا يليق بالحكمة .

و قد علم العلماء أن اﷲ تعالى قد فرض الزكوات و الخراج و الجزية و الغنائم و الكفارات ليستغني بها الفقراء فإختص بذلك الظلمة .

و صانع من تجب عليه الزكاة بإخراج بعضها فجاع الفقير .

فينبغي أن نذم هؤلاء الظلمة و لا نعترض على من قدر الكفاية للفقراء .

و قد حصل في ضمن هذا عقوبة الظالمين في حبسهم الحقوق و ابتلاء الفقراء بصبرهم عن حظوظهم .

و أكثر هؤلاء المعترضين لا يكادون يسلمون وقت خروج الروح من إعتراض يخرج إلى الكفر فتخرج النفس كافرة .

فكم عامي يقول : فلان قد ابتلى و ما يستحق .

و معناه أنه قد فعل به ما لا يليق بالصواب و قد قال بعض الخلعاء : .

(أيا رب تخلق أقمار ليل ... و أغصان بان و كثبان رمل) .

(و تنهى عبادك أن يعشقوا ... أيا حاكم العدل ذا حكم عدل ؟ ؟) .

و مثل هذا ينشده جماعة من العلماء و يستحسنونه و هو كفر محض .

و ما فهم هؤلاء سر النهي و لا معناه لأنه ما نهى عن العشق و إنما نهى عن العمل بمقتضى العشق من الأشياء المحرمة كالنظر و اللمس و الفعل القبيح .

و في الامتناع عن المشتهي دليل على الإيمان بوجود الناهي كصبر العطشان في رمضان عن الماء فإنه دليل على الإيمان بوجود من أمر بالصوم .

و تسليم النفوس إلى القتل و الجهاد دليل على اليقين بالجزاء .

ثم المستحسن أنموذج ما قد أعد فأين العقل المتأمل .

كلا لو تأمل و صبر قليلا لربح كثيرا .

و لو ذهبت أذكر ما قد عرفت من اعتراض العلماء و العوام لطال .

و من أحسن الناس حالا في ذلك ما يحكى عن ابن الراوندي أنه جاع يوما و إشتد جوعه فجلس على الجسر و قد أمضه الجوع .

فمرت الخيل مزينة بالحرير و الديباج فقال : لمن هذه ؟ فقالوا : لعلي بن بلتق غلام الخليفة .

فمرت جوار مستحسنات فقال : لمن هذه ؟ فقالوا : لعلي بن بلتق .

فمر به رجل فرآه و عليه أثر الضر فرمى إليه رغيفين فأخذهما و رمى بهما و قال : هذه لعلي بن بلتق و هذان لي ؟ .

نسي الجاهل الأحمق أنه بما يقول و يعترض و يفعل أهل هذه المجاعة .

فيا معترضين و هم في غاية النقص على من لا عيب في فعله أنتم في البداية من ماء و طين و في الثاني من ماء مهين ثم تحملون الأنجاس على الدوام و لو حبس عنكم الهواء لصرتم جيفا .

و كم من رأى يراه حازمكم فإذا عرضه على غيره تبين له قبح رأيه .

ثم لمعاصي منكم زائدة في الحد .

فما فيكم إلا الإعتراض على المالك الحكيم ؟ .

و لو لم يكن في هذه البلاوي إلا أن يراد منا التسليم لكفى .

و لو أنه أنشأ الخلق ليدلوا على وجوده ثم أهلكهم و لم يعدهم كان ذلك له لأنه مالك لكنه بفضله و عد بالإعادة و الجزاء و البقاء الدائم في النعيم .

فمتى ما جرى أمر لا تعرف علته فانسب إلى قصور علمك .

و قد ترى مقتولا ظلما و كم قد قتل و ظلم حتى قوبل ببعضه .

و قل أن يجري لأحد آفة إلا و يستحقها غير أن تلك الآفات المجازى بها غائبة عنا و رأينا الجزاء وحده .

فسلم تسلم و إحذر كلمة إعتراض أو إضمار فربما أخرجتك من دائرة الإسلام